

ومن ضمن تلك الدعوات نذكر اثنتين هما الذاكرة والخيال وهما
موسوع بحثنا في هذا القول الموجز .

الذاكرة عن الطفل :

ذكرنا فيما سبق كيفية ملائمة الطفل - أو غيره من
الأحياء - للبيئة التي يعيش فيها وقلنا إن ذلك لا يتم إلا عن
الإخضاع والتثميل « Assimilation » وطريق الخضوع
والتكييف « Accomodation » .

والذاكرة - كما يتضح لنا - يكون عملها عن طريق
الإخضاع كما أن الخيال يكون مفعوله من ناحية الخضوع .
وذاكرة الطفل - كما هو متوقع - تختلف اختلافاً
أساسياً عن ذاكرة الكبار لأن الذاكرة جزء من « كلية »
العقل والعقل محدود الجوانب ، صغرها عند الأطفال يتناسب مع
صغر أعمارهم وأجسامهم وهي ظاهرة فسيولوجية طبيعية .

وطريقة عمل الذاكرة على وجه العموم تكون بواسطة
الطرق الأربع الآتية :

- (١) تثبيت الذكريات « Fixation des Souvenirs »
- (٢) بقاء الذكريات « Conservation des Souvenirs »
- (٣) مكان الذكريات « Localisation des Souvenirs »

ولو شاء أصحاب البترول لأمكنهم أن يرفهوه الآن ولا أحد يتمتع
عن دفع الثمن لأنه ضروري للحياة وللحرب .

يا فاس عندنا سلاح قوى جداً ولا تستعمله - ليس في أمة
تخاذل كهذا التخاذل وجبن كهذا الجبن

واليهود من أين يأتون بالبنزين لسياراتهم وطائراتهم و... الخ
ليس من بترول العراق والحجاز . يأخذون بترولنا ويحاربوننا به
يا قوم تيقظوا . إن الويل اليهودي القادم عليكم لا تحسون به
الآن لأنه لم يقع بعد . ومتى وقع فلا ينفعكم لو ولا ليت .

قبل إن اللاجئيين في شرقي الأردن أصبحوا في درجة من
اليأس لا يحتمل وهم يفكرون في مفاوضة اليهود . وهذا ما يتوقعه
اليهود . فإذا حدث سقطت فلسطين كلها في أيدي اليهود ، ثم
تلها شرقي الأردن . ثم... ماذا وماذا ؟ الويل ثم الويل ...

نور الهدى

لمحة من سيكولوجية الطفل

عود علي بدء

للدكتور فضل أبو بكر

شرحتنا في المقال السابق باختصار - أمل ألا يكون عملاً -
ناحية من سيكولوجية الطفل ووعدنا القارئ الكريم بالعود على
ما بدأناه . ولما كان وعد الحردين - كما يقولون - فإننا نفي
بوعدها في مواصلة البحث حتى يكون القارئ فكرة واضحة
جلية على قدر الإمكان عن هذا النوع من الدراسات النفسانية .
إن إدراكنا لحقائق الأشياء يأتي عن طريق الملاحظة
والتجارب بواسطة الحواس كالسمع والبصر ، أو عن طريق
المقارنة والاستنباط بواسطة العقل والبصيرة . وهذه التجارب
مادية كانت أو معنوية تكتمل عندنا شيئاً فشيئاً كقطرات الماء
تساقط على الأناء الفارغ فتحتل فراغه وتقم سعته . وكما أن
الأواني تختلف من حيث السعة والطاقة كذلك التجارب عند
الناس مختلفة فمنها الواسع النرام ومنها الضيق المحدود الجوانب .
والتجارب نفسها لا بد لها من أسس ودعائم ترتكز عليها

فلماذا أنتم هكذا ؟ أنتو قومون من إنجلترا أن تسلمكم ؟

لماذا لا تنشئون آلات ومماصل لصنع السلاح ؟ أليس عندكم
مال ؟ أليس عندكم عقول ؟ أليس عندكم عقل ؟

أمس كتب الملحق التجاري للسفارة الأمريكية أن بترول
الشرق الأوسط هو ٦٠ بالمائة من بترول العالم . فهل هذا قليل
وأى سلاح أمضى من البترول . هل تطير طائرة أو تسير سيارة
أو تدب دابة أو تتحرك سفينة إلا بهذا البترول .

بعد ٣٥ سنة لا يبقى بترول أمريكا أمريكا شهراً أو بضعة أشهر
في سنة ١٩٥٢ تجوع المدينة الغربية كلها إلى البترول
أكثر جداً مما يجوع اللاجئون الآن إلى الخبز .

بعد بضع سنين تهافت المدينة الشائخة على بترول العراق
والحجاز والبحرين وإيران وبترول الصحراء الذي لم يستتبط بعد
تهافت النمل على قصبة عسل أو تهافت الدباب على الزايل . بعد
بضع سنين يرتفع ثمن لتر البترول من شلنين إلى عشرة شلنات .

أسباب ضعف ذاكرة الطفل :

قلنا إن تثبيت الحوادث وبقاها وترتيبها حسب الزمن واستدعاءها عند الازوم في ذاكرته كل ذلك إنما يكون بطريقة بدائية غير مكتملة ، وذكرنا الأسباب المؤدية لذلك . وهنالك هاملان يؤديان إلى ضعف ذاكرة الطفل وهما : (١) النسيان . و (٢) تشويه الذكريات وتبديلها في ذاكرته .

١ - النسيان : يحدث عند الكبار لعدة أسباب : منها « الفسيولوجية » بمعنى أن يمتري الذاكرة نوع من « التاكسد » وعدم القابلية للاستيعاب بسبب التعب الجسمي أو العقلي . وهنالك أسباب « سيكولوجية » كالصدمات النفسية العنيفة التي تحدث في النفس نوعاً من القبض « Inhibition » فينشل التفكير ويقبض معين الذاكرة . وأسباب « باثولوجية » كما يحدث في بعض الأمراض العقلية كالذهان والضعف ، أو بعد نوبة الصرع ، أو لأمراض معدية أو وبائية كالحمى التيفودية والالتهاب السحائي ، كل هذه الأمراض تسبب ضعفاً في الذاكرة ينتج منه النسيان .

كل ما ذكرنا من أسباب إنما هي شخصية نعتري الشخص نفسه فتسبب له النسيان . وهنالك أسباب أخرى خاصة بالأشياء « Odjectives » تتصف بها تلك الأشياء فتسبب أو تساعد على نسيانها . مثال ذلك تفاهة الأشياء والأثر الضعيف الذي تتركه في الذاكرة فلا يلبث أن يزول وتحتفي مماله . ومنها كون الأشياء بغيضة على النفس غير محببة لها فتلفظها لفظ النواة وتسقطها من حسابها .

أما عند الطفل فأكبر سبب للنسيان ناشيء عن انحطاط درجة تفكيره الذي يشمل الذاكرة أيضاً ولأن إدراكه « Perception » للأشياء خاطيء وقد سبق أن شرحنا ذلك وبيننا الأسباب المؤدية إليه وهي غير الأسباب المؤدية للنسيان عند الكبار .

٢ - تشويه الحوادث وتبديلها في ذاكرة الطفل : تأخذ الحوادث والأشياء صورة ممسوخة مشوهة في ذاكرة الطفل وهو يعتقد بصحتها ، كما أنه من الصعب بل المتمرد في كثير من الأحيان الوصول إلى تغيير هذا الوضع الخاطيء في ذاكرته . وانضرب لهذا مثلاً وهو إذا روينا قصة لطفل ورجونا

(٤) استدعاء الذكريات « Evocation des Souvenirs »

هذه هي العوامل الأربعة اللازمة للذاكرة حتى تؤدي وطبقها وستشرح فيما يلي كل عامل على حدة :

١ - تثبيت الذكريات . إذا عرضنا أمام ناظر الطفل بعض الأشياء أو الصور أو روينا له حكاية بسيطة مسلية وطابنا منه بعد حين قصير أن يصف لنا ما شاهده أو يقص علينا ما سمعه تبين لنا أن قوة التثبيت ضعيفة عنده كما أن اللاديات تكون أثبت في ذاكرته من اللعنويات وأنها تتمتع كل الاعتماد على الحس .

٢ - بقاء الذكريات : يكون عنده بطريقة غير متساوية من حيث المدة . فقد ينسى ما قصه عليه منذ ساعات قلنا ثم يتذكره بعد مضي بعض الوقت كما أن بقاء الذكريات يكون مرهوناً بفرزة تمر كز اهتمام الطفل حول نفسه « Egocentrisme » ويبدو الطفل هنا أنانياً مفرضاً كما هو الواقع بدليل أن الأشياء التي تهمة دون غيره أو يرى فيها إرضاء لرغبته تكون أبقى في ذاكرته وإن كان هذا البقاء نفسه قصير الأمد ، ولكنه عند الأطفال يخضع لسلطان « الوعي » بخلاف الحال عند الكبار إذ يكون بقاء الذكريات من عمل « اللاوعي » .

٣ - مكان الذكريات : وتقص بذلك المكان الذي تحتله بالنسبة لزمن حدوثها وتتابعها وفقاً لدرجة أسبقيتها ، وفي هذه الحالة يتضح لنا ضعف ذاكرة الطفل لأنه يجهل فكرة « الزمن » ومن هنا يتمدد عليه ترتيب الذكريات ومن هنا كان لفظه وخلطه للحوادث ، ولا ينتظم ترتيب ذكريات الطفل وإحلالها المكان اللائق لها إلا ما بين العام السابع والحادي عشر من عمره إذ يكون وقتئذ قد كون فكرة عن الزمن .

٤ - استدعاء الذكريات : هو نوع من الاجترار لا يختزنه مستودع الذاكرة إذ يتسنى للكبار أن يستدعوا ذكرياتهم ، وقد نسمهم في كثير من الأحيان لأنه في استطاعتهم أن يوجهوا تفكيرهم في ناحية خاصة ويتحكموا فيه بخلاف الحال عند الأطفال إذ يكون بطريقة تلقائية غير إرادية كالبقاء وهذا ما يحدث عند الطفل ما بين سن الثانية إلى الخامسة وهو ما نشاهده عند الأطفال حينما يسمعون قطعة من المحفوظات فيكون إلغاؤهم لها بصوت على ونبرة واحدة لا تغيير نبراته بطريقة حرفية تلقائية خالية من الفهم والوعي لا بلقونه .

بالمعنويات كما أنه تلقأى « Spontanée » يصل إلى الهدف من أقرب طريق .

فإذا ما شاهد الطفل مثلاً قطرات الندى في الصباح الباكر تنكّل الحشائش أو تتدلّ من أعطاف الورد فقد يتبادر إلى ذهنه فوراً بأن الورد حزين بالك بذرف الدمع ؛ وإذا رأى فراشاً ملوناً « Papillons » يتطاير في الحقول فقد يظنه زهوراً طائرة .

فن هنا نرى أن خيال الطفل يصل إلى هدفه من غير كبير عناء . وقد يترأى لنا في هذه الحالة بأن للطفل مسحة شاعرية لأن الشاعر في مثل هذه المواقف وبمد أن يكاد خياله ويتذوق ما في المشهد من جمال وروعة لا يقول أكثر مما قاله الطفل بأن الورد قد احمر خجلاً أو بكى حزناً ، أو أن الزهور تتطاير فرحاً أو هماً ، وكل ما هنالك من فرق هو أن الشاعر يحلم ويتذوق والطفل يجزم ويحسد ما يقع تحت ناظره ويرسم على خياله .

يقول الفيلسوف « أوجست كت » مؤسس مذهب الإيجابية بأن الخيال يمر بثلاثة أطوار :

الطور الأول : هو الطور الديني فقد تخيل الإنسان الأول فكرة الدين والآلهة ، وهي فكرة مرماها الفسيولوجية ، والسيكولوجية هو ملاممة الإنسان لبيئته وأمله في الخلود تتجلى فيها ظاهراً الإخضاع والخضوع بصورة جلية واضحة . يخضع للآلهة ويتقرب إليها حتى إذا ما فاز منها بالخطوة والرضا استعمل بدوره تلك الخطوة وذلك الرضا في إخضاع بيئته من طبيعية واجتماعية وأصبح أقوى نفساً وأشدّ مراساً في حربه الدائمة السرمدية مع تلك البيئة .

ذكرنا أيضاً في المقال السابق بأن « الحيوية » « Animisme » هي من مميزات عقلية الطفل يشاركه الإنسان الأول في هذه الصفة إذ كان يعبر الأسمان والجادات شيئاً من الحيوية والإرادة والتفكير ومن هنا كان يخشى بأسها ويرتجى معونتها . كذلك الطفل في سنه المبكرة يرى في بعض الجادات حياة وإرادة ، فانظر إليه يناجى لعبته ويناعها حيناً ، ثم لا يلبث أن تتغلب عليه صفة الفلق السريع والتحول المفاجئ ، فينبذها ويقصها . وقد تتغلب عليه غريزة « الإخضاع » والسيطرة وحب الذات إذا لم تسر على هواء أو تحكيف على صورة خاصة كما لو كانت ذات وعى وإرادة .

الطور الثاني : هو الطور « الرومانتيكي » والوهي يظهر فيه

بعد قليل من الوقت أن يروي لنا ما سمع أو يقصها على طفل آخر ورجونا هذا الأخير أن يقصها على طفل ثالث تبين لنا في النهاية أن القصة الأولى قد مسخت وكادت معالمها أن تزول ؛ وذلك أن كل طفل يزيد عليها من الحوائش والتعاليق بما يتفق وهواه ؛ كما نلاحظ ظاهرة أخرى وهي زعة الطفل إلى « الخرافة » « Fabulation » كما قد تبقى آثار هذه الظاهرة عند الكبار ولكنها تصدر منهم عن « وهمي » بخلاف ما يحدث عند الأطفال إذ تصدر من « اللاوعي » .

الخيال عند الأطفال :

علمنا مما سبق شرحه بأن الذاكرة عامل لا بد منه للملءمة البيئة وهي عند الطفل تخضع لظاهرة الإخضاع « Assimilation » مآؤها التحيز والأناية والسادية ، وهي صفات فسيولوجية وسيكولوجية لازمة لنمو الطفل .

إن الذاكرة والخيال يعملان معاً ويكمل كل منهما الآخر ؛ ولكن في بدء حياة الطفل يكون أثر الذاكرة أوضح ظهوراً وأقوى مفعولاً من أثر الخيال الذي يكون في بادئ الأمر ضئيلاً جداً ، ثم ينمو وينمو جسم الطفل وعقله وهو بلا شك أسمي مرتبة من الذاكرة ، ويمد خطوة واسمة إلى الأمام في سبيل التطور العقلي ، وهو بالمعكس من الذاكرة يخضع لظاهرة الخضوع والمصانعة « Accomodation » وهو العامل الثاني اللازم للملاءمة البيئية ، وظاهرة الخضوع والمصانعة هي ظاهرة شاقة عسيرة على الطفل وفيها نوع من التصحبة من جانبه .

والخيال — على وجه العموم — هو المقدرة على رسم صور لما وعيناه أو تأملناه من فكر وأشياء ، ثم الربط بين تلك الصور والأفكار وإبرازها جلية واضحة في تخيلتنا في شبه « لوحة » « Tableau » كاللوحات الزيتية التي يصورها ويرسمها الفنانون والرسامون .

والخيال ضد الواقع ، وإذا قيل عن إنسان إنه خيال فمعنى ذلك أنه ليس واقعياً ، وكما يعرف الفيلسوف الفرنسي « باسكال » « Pascal » بأنه قد يكون مصدراً للأخطاء والأغلاط يختلف خيال الكبار عن خيال الأطفال لا في وسعه وخصوبته وذلك أنه عند الكبار تحسب ، ولكن في نوعه وطريقة عمله ، فهو أفتح إلى المادية بمعنى بها أكثر بكثير من عنابته

١ - « الميثومانية » Mytlinmahole وهي نزعمة يجنح فيها لخلق الأكاذيب والمفسدة على حذفها وتصبح له عادة وهوابة لا ينفك عنها بل تلازمه طيلة حياته إذا لم يبادر بملاجه منها .

٢ « البوفارزم » Bovarysme وهو نوع من « اليقالومانيا » هو تخيل المراهق بأنه ذات مصونة وشخصية صرموقة .

٣ - « الشزوبدية » Schigoidie وهو أخطر أنواع الشذوذ والأمراض النفسانية التي قد يصاب بها المراهق . ومن خواصها وعوارضها أن المراهق يستسلم « لأحلام اليقظة » ويستحل الاستفراق فيها يطلق لخياله العنان ويسبح في ملكوت الأوهام ثم يجنح إلى العزلة يهاب المجتمع أو يحتقره في بعض الأحيان ويبنى « قصوراً في الهواء » كما يقول المثلي .

هذا الشذوذ قد يصاب به بعض الفلاسفة والفنانين ولكنه يقف عندهم عند هذا الحد . أما لدى الطفل فقد تشتد وطأته ويفضي به إلى ما هو أدهى وأسر ، ونقصد بذلك داء « الفصام » Schizophrenie

ومن علامات ظهوره عند المراهق هي اشتداد عوارض « الشزوبدية » فينطوى الطفل على نفسه انطواء تاماً ويبدو خجولاً متسكماً ولا سيما في حضرة من هم مثل سنه ، وإذا أرقم على مجالسة غيره فقد يفضل أن يكون ذلك مع الكبار .

بصور له خياله آفاقاً بعيدة وأهدافاً عالية تعبو نفسه إلى تحقيقها ولكنه لا يبدي مجهوداً لتحقيقها لأن المجهود يتطلب مواجهة الواقع ومصارعة الصعاب وهو ما يفر منه فراراً فيفضي به الحال إلى الإخفاق فيحز ذلك في نفسه ويريد من فصامه في شكل « دائرة خبيثة » وكلما ازداد تحمزه وطموحه وتوثبه ازداد إخفاقه وابتعاده عن غايته على حد قول الشاعر :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس
أو كما تقول الحكمة القائلة « السائر على غير هدى كلما ازداد
جداً ازداد عن غرضه بعداً » .

هذه لمحة مختصرة من سيكولوجية الطفل على القارىء أن يجد فيها بعض الفائدة .

فضل أبو بكر

(باريس)

عذر بشة فاروق الأول السردانية بمرنا

الطفل تقدماً محسوساً ، فبعد أن كان في الطور الأول يمتد في حيوية بعض الجمادات من أدوات لعبه تنضح له ماهيتها الحقيقية ، ولكنه في هذا الطور يلجأ إلى « الغرض » ويستعمل « المجاز » فيتحيل مجازاً بأن لمبته كائن حي لأن في ذلك لذة شاعرية نفسانية وهذا الغرض نفسه إنما ينتج عن « الوعى » . ويمكننا أن نعتبر هذا الطور بداية الشاعرية والخيال الحقيقي . كذلك بعد أن كان الأطفال في الطور الأول يمتدون في وجود « بابا نويل » ولا يرتابون في أمره وبأنه هو الذي يهبط من السماء في صبيحة رأس السنة الميلادية وعيدها ويأتيهم بالهدايا والتحف يبدوون يشككون في أمره بل ينكرون وجوده وإنما هي حيلة ودعاية من والديهم وذويهم يقصد منها جلب السرور إلى أنفسهم . غير أن هنالك نوعاً من خيبة الأمل تحدث للأطفال حينما يتبين لهم حقيقة « البابانويل » أو غيره من الأشياء التي كانوا يتخيلونها على هوام ؛ لهذا يفرضون مجازاً ويمحض وعيهم وخيالهم بأن « البانويل » يهبط من أعلى السماء ويأتيهم بما يشتهون لأن في الوهم الرومانتيكي لذة نفسية ، كما أن ذلك يحلوا لكبار ويشعرون بشيء من السرور لبقاء آثار هذا الطور الرومانتيكي عالقة في أذهانهم وإن كنا لا ننكر بأن غبطة سفارهم هي العامل المباشر لجلب السرور إلى أنفسهم . وهذه الالذة النفسانية يشعر بها مؤلفو قصص الأطفال والأمثال الخرافية مثل أمثال لافونتين الخرافية .

الطور الثالث : يتولد فيه عند الطفل كبير من الوعى وينقد فيه ما كان يسلم به تسليماً آلياً تلقائياً « Sens Critique » كما يجنح إلى الواقعية ويصبح خياله مرتبطاً منطها بعد أن كان منفكاً الحقائق مفقودها في أغلب الأوقات وهو ما يظهره خطأ أو يترامى اللذنان وسمه بالنسبة لمقلية الطفل هذا الخيال الذي كان واسماً سطحياً - لتفككه بصبح عميقاً - لتركزه وربطه - محدود الجوانب . كما تبدر عند الطفل آثار قوة الملاحظة .

كما أن آثار الطور الثاني لا تزال تبقى لدى الطفل ولكنها تضمحل شيئاً فشيئاً ويحل محلها الخيال العلمى وهو كما يلقبونه « بطور البناء » هو بداية الإنتاج والابتكار لدى الطفل .

هذا وقد يمررى الخيال نوع من الشذوذ في سن المراهقة وهي كما نعلم أخطر الأطوار في نمو الطفل جسمياً وعقلياً ونفسانياً نذكر بعضها باختصار .